



الشخصية اليهودية في أدب باكثير: رؤية تحليلية تداولية

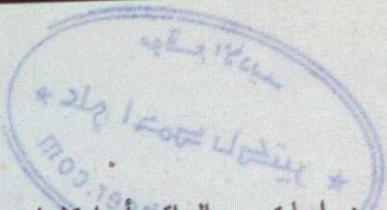
د. إدريس مقبول - المغرب^(١)

يُعدّ أدب علي أحمد باكثير - رحمة الله عليه - بحق من الأدب الإنساني العالمي الذي يرقى بشموخ إلى مصاف النجوم الخالدة والروائع الرائدة، وهو عندنا بمنزلة شكسبير للإنجليز غير أنه لم يوف حظه من المتابعة النقدية، إنه باكثير الذي لم يستظل بأدبه كما هي عبارة المتقدمين من النقاد بمعنى أنه لم ينكب به، باكثير الذي ناضل بقلمه وفنه من أجل رسالته في الحياة، منتصراً لقيم الحق والعدالة والجمال، ولعل الأعمال الفنية التي خلفها ما تزال ظمائى إلى مزيد من الاجتهد وبذل الجهد في كشف مكوناتها الفنية وإيماطة اللثام عن أفكارها ورؤاها الأدبية المتميزة.

ونحسب أن موضوع "الشخصية اليهودية في أدب باكثير: رؤية تحليلية تداولية" محاولة ضمن هذا المشروع. ويمكن تلخيص دواعي اختيارنا لهذا الموضوع فيما يلى: الكشف عن جانب من جوانب إبداع الأديب علي أحمد باكثير في التصوير الأدبي المتخيّر لقضايا أمتّه. وإبراز الرؤية الفنية والفكريّة التي كانت ثاوية في تصوير باكثير للشخصية اليهودية. وتجلّي الرسالة الفنية والإنسانية في معالجة باكثير لقضية اليهود واليهودية في أعماله. والجمع بين تجربتين الأولى إيداعية فنية للراحل باكثير والثانية منهجية تحليلية للراحل عبد الوهاب المسيري .

وقد صدرت في موضوع القضية الفلسطينية في مسرح باكثير عدة

(١) د. إدريس مقبول، المركز التربوي الجبوى - جامعة المولى إسماعيل، مكناس، المغرب.



دراسات ، والواقع أنها كلها دراسات علمية جادة على جانب من الأهمية في إثارة سؤال اليهود في أعمال باكثير الأدبية، غير أن ما يغلب عليها هو انشغالها بمسألة رياضة باكثير في طرق موضوع القضية الفلسطينية حتى قبل قيام الكيان الصهيوني، وهي مسألة هامة بكل تأكيد، كما انشغلت هذه الأعمال باستعراض جل أعمال الأديب الراحل التي تناولت الموضوع، والتمييز فيما بينها بين ما جاء موضوعه عن القضية الفلسطينية واليهود وما جاء فيها التعرض لليهود بطريقة غير مباشرة أو رمزية، وكذا عناية باكثير - عليه رحمة الله - بعرض اليهود بصورة موضوعية غير متوجبة ولا مغرضة، إذ لم يقتصر على تصوير الشخصيات اليهودية التي تمثل الجانب الشرير وحده، بل عرض للكثير من الشخصيات اليهودية الإيجابية التي ترفض الحركة الصهيونية، التي تقوم على مبدأ التمييز العنصري وترفض المقومات التي قامت عليها دولة إسرائيل.

تكمن صعوبات البحث في هذا الموضوع في أمرتين أساسين، الأول: وينتقل في اتساع دائرة أعمال المرحوم الأديب الراحل، وتتنوعها الأجناسى بين شعر ورواية ومسرح ومحاضرة وغيرها، وكل أولئك يجعل مهمة التتبع والاستقراء صعبة في ورقة علمية كهذه. والثاني: يتمثل في غياب مراجع أو دراسات تحليلية سبقت إلى تناول الموضوع من وجهة نظر تداولية (النموذج التحليلي المركب). ولعل هذه الورقة تكون بإذن الله لينة في هذا البناء.

النموذج المعرفي التحليلي المركب:

النموذج المعرفي التحليلي الذي اخترناه لمقاربة الموضوع يعود الفضل في تأسيسه في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة إلى المفكر والناقد الكبير الدكتور الراحل عبد الوهاب المسيري - عليه رحمة الله - وهو ما ندعوه في بعض دراساتنا بالتداوليات التحليلية^(١)، والمنهج هو وسيلة لإدراك ما لا يمكن إدراكه بشكل مباشر نظراً لتركيبية الظواهر المدرستة باعتبارها مجازات

متداخلة .

إن هذا المنهج يهدف إلى رصد الظواهر في خصوصيتها وعموميتها، في سطحها وأعماقها، ورصد ما هو ظاهر وقائم وما هو كامن وممكناً، وهو منهج خططي يحاول رصد الظواهر لا بوصفها أجزاء متاثرة، وإنما بوصفها جزءاً من كل، أجزاء يتفاعل بعضها مع بعض.

إنه منهج يعلمنا عبر إجراءاته وآلياته التفكيكية عدم الخضوع لإمبريالية المقولات وعدم تقبل رؤى الآخر عن نفسه وعننا كما لو كانت حقائق طبيعية ونهائية، إذ لا بد أن ننفصل عن أنفسنا التبعية الإدراكية، ونخلص من التبسيط الموقع في الاختزالية^(٢).

أولاً: لماذا البعث في الشخصية اليهودية؟

البحث في الشخصية اليهودية هو بحث في غور "الإنسان الماكر" بنص الدين والأدب والتاريخ، واستطلاع لكشف أعماقه التي يسيطر عليها في بعض الأحيان النزوع الشيطاني المارد المتمرد على الحق والخير والجمال ، الطالب الباطل المشبع لقيم القبح والسوء.

إن البحث في الشخصية اليهودية هو بحث يرمي إلى التعرف عن قرب كيف تفك وتدبر هذه الشخصية؟ وكيف تبني منطقها بالمغالطة والالتفاف على حقوق الآخرين؟ كيف تستبيح حرمات الآخرين؟ كيف تتقن بناء منظومة الكذب ببراعة؟ وكيف تحتمي بشرنقة المظلومية لتعاود الإغارة على ضحاياها أصحاب الحق؟

وعلى قدر ما تناول هذه الشخصية اليهودية من الإدانة الإنسانية بسبب مواقفها وسلوكياتها، تحظى في الآن نفسه بنوع من الجاذبية التي يفرضها منطق التصوير الأدبي، وهنا تكمن براءة الأديب وقدرته الفنية في الرصد والتصوير والنفاذ إلى الأعماق مع الحفاظ على التوازنات المطلوبة في الصراع الدرامي^(٣)، ولقد أجاد باكثير رحمه الله _أيما إجادـة في رسم الملامح الفنية لهذه الشخصية

بما يشي بمعروفة دققة بها وبمكوناتها وتفاصيلها النفسية من منطلق رسالي^(٤)، وهو ما ساعدنا في تطبيق نموذجنا التحليلي المركب عليه لأنها تمثل من

مقومات البناء ما يسمح بتوفير قدر كبير من المعطيات التي يغتنى بها النموذج التحليلي لهذه الشخصيات في الواقع والأدب على حد سواء، ولقد كان باكثير - رحمة الله - على وعي كبير بخطورة رسم الشخصية في أعماله، فهو يعتبر أنه "الذي يوفق الكاتب في رسم شخصه ينبغي أن يتعرف إليهم واحداً واحداً، ويعيش معهم في ذهنه برؤية كافية حتى يقرر أو يكتشف لكل واحد منهم أبعاده الثلاثة: بعد الجسماني أو الشكلي، وبعد الاجتماعي، وبعد النفسي"، فعلى معرفته الدقيقة بهذه الأبعاد يتوقف نجاحه في رسم شخصياته^(٥)، وقد أفلح باكثير في مهمته التصويرية لشخصياته عموماً وشخصياته اليهودية على وجه الخصوص.

ثانياً: الشخصية اليهودية والجماعة الوظيفية

ولنأخذ مثال "راشيل" (رمز الصهيونية الفاجرة) في مسرحية "شيلوك الجديـد"، إذ يصفها باكثير حين يحدد سماتها في إطار وظيفي أحادي البعد، لا يخرج عن "التوظيف المادي الجسدي"، وكل منظومتها السلوكية لا تبتعد عن هذا التوظيف بما يستتبع من (كذب وخيانة ومجون وعمالة وفساد...). إنها نموذج الفتاة اليهودية التي لا ترد يد لامس طبعاً من أجل غaiات ووظائف محددة وتركيز باكثير منذ البداية على أنها "شقراء مشوقة القد، ناضجة الأنوثة، كلها إغراء وفتنة، وترتدي فستانـا من الحرير سماوي اللون، محبوـكا على جسدهـا حتى ليـكاد أن يتمـزق"^(٦) يفتح أفق توقع القارئ على الوظيفة المرسومة لهذه الشخصية ولأدوارـها في المسرح والحياة، ومن جهة أخرى يعطي الانطباع بأن الكاتب كان واعـياً بالمفهوم الذي نرسـي عليه تحليلـنا، أي "المجتمع الوظيفـي" وما يتطلـبه من "مهـارة وخبرـة وظـيفـية" حتى يـفعل "مـفعـولـه". ومـعلوم أن "الشخصـية اليـهـودـية تـاريـخـياً" مـثلـت وظـيفـياً "الـدعـارـة في سـبيلـ العـمالـة" عـالـميـاً أـخـبـثـ تمـثـيلـ وأـكـثـرـ قـدرـة على التـأـثـيرـ والـاخـتـراقـ.

الجماعة الوظيفـية^(٧) مـصـطلـح قـام بـوضـعـه الـدـكتـور عبد الوـهـاب المسـيري استـنـادـا إلى مـصـطلـحـات قـرـيبـة في علم الـاجـتمـاعـ، لـوـصـفـ مـجمـوعـاتـ بشـرـية تـسـجـلـهاـ المـجـتمـعـاتـ الإـنـسـانـيـةـ، من خـارـجـهاـ فيـ مـعـظـمـ الأـحـيـانـ، أوـ تـجـنـدـهاـ مـنـ أـعـضـاءـ المـجـتمـعـ أـنـفـسـهـمـ منـ بـيـنـ الأـقـلـيـاتـ الإـثنـيـةـ أوـ الـدـينـيـةـ، وـيوـكـلـ لـأـعـضـاءـ هـذـهـ الجـمـاعـةـ الـقـيـامـ بـوـظـائـفـ فيـ الـغالـبـ هـامـشـيـةـ وـمـنـحـطـةـ وـدـمـوـيـةـ وـارـتـزـاقـيـةـ، وـيـتـوارـثـ أـعـضـاءـ الجـمـاعـةـ الوـظـيفـيـةـ الـخـبرـاتـ فيـ مـجاـلـ تـخـصـصـهـمـ الـوـظـيفـيـ، الأـجيـالـ وـيـحـتـكـرـونـهاـ بـلـ وـيـتـوحـدـونـ بـهاـ، لـيـنـتـهـيـ الـأـمـرـ باـكـتسـابـهـمـ هـوـيـتـهـمـ وـرـؤـيـتـهـمـ لـأـنـفـسـهـمـ مـنـ خـالـلـ هـذـهـ الـوـظـيفـةـ لـاـ مـنـ خـالـلـ إـنـسـانـيـتـهـمـ الـكـامـلـةـ، فـإـنـسانـ الجـمـاعـةـ الـوـظـيفـيـةـ إـنـسانـ اختـرـلتـ إـنـسانـيـتـهـ فـصـارـ كـانـتـاـ ذـاـ بـعـدـ وـاحـدـ^(٨).

والـجـمـاعـةـ الوـظـيفـيـةـ كـماـ تـكـونـ أـفـرـادـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـونـ دـوـلـةـ بـكـامـلـهـاـ مـثـلـاـ هـيـ إـسـرـائـيلـ نـفـسـهـاـ فـيـ الشـرـقـ الـعـرـبـيـ أوـ الـأـوـسـطـ، إـذـ أـرـادـتـ أـمـريـكاـ أـنـ تـرـثـ الـاسـتـعـمـارـ الـقـدـيمـ فـاتـخـذـتـ إـسـرـائـيلـ آـلـهـ لـإـخـضـاعـ الـعـربـ مـنـ خـالـلـ الـيـهـودـ، ظـانـةـ

"ويتجاوز مفهوم الجماعة الوظيفية الجوانب الاقتصادية والاجتماعية المباشرة ليصل إلى الجوانب المعرفية وإلى رؤية الإنسان للكون"^(١). ومن ذلك أن "راشيل" وإن اختزل وجودها في تحقيق طموحات وغایيات وظيفية مادية صرفة، فإنها لا تخلو من وعي يمثل الحد الأدنى من رؤيتها للعالم، هذه الرؤية التي لا تخلو في هندستها من معتقد ديني يتراوح في جدلية بين الخفاء والتجلّ: "راشيل: هذا الخاتم في إصبعك يشهد إنك كاذب فيما تقول.

عبد الله: هذا الخاتم في إصبعي وليس في قلبي.

.....

عبد الله: قد كان ذلك قبل أن أراك يا راشيل، ولكن حبك قد نسخه كما نُسخت شريعة موسى بشريعة محمد.

راشيل: ولكن شريعة موسى هي الباقية يا عبد الله.

عبد الله: دعي هذا البحث للشيخ والحاخام يتنازعان القول فيه، أما نحن فلنوحد الشريعتين في هذه القبلة"^(١٠).

إن "راشيل" لا تنتي ترد في سرعة بديهية بوثوقية وجزم على عشيقها "عبد الله" حين أحرجه بارتباطه بالمرأة المصرية من خلال الخاتم الذي يحمله في إصبعه، رداً يعكس جزءاً من العقيدة التوراتية التي تفتّت بين الفينة والأخرى لتفصح عن "المكتون" الذي لا يموت ولا يتلاشى وإن "استر" لدوع نداولية سياقية.

إن جواب "راشيل" يعكس لحظة من الوعي اليهودي بالهوية المستقلة، "واليقظة الصهيونية" في مقابل "بوهيمية عربية" و"غفلة قومية" عن حساسية الموقف الوجودي حين يشهر "الآخر" سلاحه و"هويته"، فـ"راشيل" لم تقل بأن شريعة موسى باقية ولم تنسّخ كما ذكر "عبد الله" في معرض توظيفه الحجاجي، وإنما أكدت بأسلوب غاية في التوكيد والجسم بأن شريعة موسى "هي الباقية" بالتعريف المفيد القصر، وهذا جزء من البرنامج الوظيفي للشخصية، وما يفهم بالاقضاء أن سواها هو المنسوخ والفاني. إنها لحظة تواصلية ينكشف فيها

ولما كانت هذه الوظيفة تتوجه أكثر ما تتجه لمخاطبة أحط ما في الإنسان من مقومات، وهو جانبه الأضعف، فقد كان دائماً العمل الاختراقي لجهاز العمالة لا يستغني عنه باعتباره "مكملاً وظيفياً رئيساً"، وهو ما عبر عنه "خليل" حين بادر بالجواب على راشيل: "لقد أديت واجبي الذي أقدر عليه، أما الباقى فعلى جمالك يا راشيل وفتتك"^(١٠).

إن سائر المفاهيم التواصلية من وجهة نظر الجماعة الوظيفية تأخذ معناها من طبيعة المهمة المنوطه بالجماعة ذاتها حتى إن مفهوم "المكافأة" الذي يعتبر مفهوماً تحقّيزياً في أي عمل إنساني من أجل المواصلة والتقدم، يصبح في تقاليد المجموعة الوظيفية التي تتنمي إليها "راشيل" مفهوماً موسعاً يتدنى بـ"المال الحرام" الذي يسلي له لعب الضعفاء (خليل وأضرابه)، مروراً بـ"الجسد" الذي يتم تسليعه وحوسلته على حد تعبير الدكتور المسيري (أي تحويله إلى وسيلة) من خلال علاقة تعاقدية نفعية محاباة خالية من أي بعد عاطفي وإنساني، فلا مجال للغيرة أو الحب الحقيقي أو أي بعد أخلاقي، إذ لا مجال للصدق أو الإخلاص، فيتم التعامل مع المنتمي لهذه الجماعة الوظيفية "بوصفه مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها"^(١١)، وفي هذا المعنى يورد باكثير على لسان شيلوك وراشيل الحوار الذي يؤكد هذه الحقيقة:

"شيلوك: حازري يا بنّي أن تكوني جادة في هذا الأمر، إننا إنما نلعب بهذا الشاب العربي لنقضي وطرنا منه، ومن مصلحتنا أن تتصل به فتيات آخر من أخواتك.

راشيل: صدقني يا عمي شيلوك إبني ما غرت عليه من أحد"^(١٢).
إنه لا مجال للعواطف في عمل الشخصيات المنتمية لـ"الجماعة الوظيفية"، لأن الأخلاق والعواطف قيم إنسانية ترفع من معدلات انتماء الشخصية للمجتمع الإنساني وتزيد من تماسكه وانسجامه، في حين لا يطلب من عضو الجماعة الوظيفية إلا الالتزام الصارم بالوظيفة المحددة لها خالية من أي قيمة، وهذا الفصل بين الفعل والقيمة هو صلب الفلسفة العلمانية الصهيونية^(١٣).

صارت إلى "حب أعدائها" والدفاع عن "مصالح الملك" أكثر من "الملك". إن الوظيفة التطبيعية لعضو الجماعة الوظيفية راشيل تواصل سيطرتها إلى حد يقر فيه العربي "عبد الله" القاصر بأنه لا يستطيع رد كلمات مركز القوة (الوصي على عقله ومشاعره)، فيمضي مستسلماً قائلاً: "أمرك مطاع يا راشيل، ولا راد لمشيتك" ^(٢١).

وحين تورط راشيل في علاقتها مع العربي "عبد الله" إلى آخر حد لتحمل منه، يكشف لنا باكثير جانباً من المهام الأخرى للجماعة الوظيفية لا تنتهي عند حد الإلهاء والغواية والتضليل والاستغلال، بل تصعد إلى حد الإسهاف في حسم المعركة الديمغرافية التي يستشعرها اليهود ويستشعرون معها التهديد الديمغرافي للعنصر الفلسطيني، جاء على لسان شيلوك: "أما تحبين يا راشيل أن تسهمي في حركة النسل اليهودية؟ إن العرب يتاسلون بكثرة مزعجة، فلا بد أن نباريهم إن شئنا أن تكون لنا الأكثريّة" لا بد من التضحية يا جميلتي راشيل، إن الدولة اليهودية تقوم على سواعد أمثالك من المضحيات المخلصات، وإن إعادة هيكل سليمان يا بنتي ليست بالمطلب الهين ^(٢٢)، فمن هذا المنطلق يتم تصوير المهمة البيولوجية "الأخلاقية" بأنها مهمة مقدسة ، وقداستها من جنس قداسة الحرب التي تشنها إسرائيل على العرب وعلى كل أعدائهما، إنه التزام بالمهمة السامية من أجل الغاية الكبرى "إعادة هيكل سليمان" المزعوم ^(٢٣).

وراشيل في شيلوك الجديد لا تختلف عنها في "شعب الله المختار" إذ تمارس نفس الأدوار وتقوم بنفس الوظائف، ودائماً يرتفع شعار "في سبيل إسرائيل" ^(٤) ليغطي على الجرائم والحماقات والفضائح... يلخص لنا الدكتور المسيري ما مر بنا من مواصفات عضو الجماعة الوظيفية بأنه "إنسان اقتصادي محض له بعد واحد (وظيفة محددة) متتحرر من القيم الأخلاقية السائدة، ويكرس ذاته لمنفعته ولذاته ويؤمن بالنسبة الأخلاقية وبازدواجية المعايير وبالحتمية، ويتسم بالحركية، ومرجعيته النهائية في علاقته بالمجتمع المضيف مرجعية مادية" ^(٢٥).

"المستور" من خلال الخطاب وال الحرب المستمرة في الخطاب، ليسمرة شلل الذات العربية أمام هذا التصریح، بل ولیؤکد "عبد الله" الذي لم يحفظ من الكلمات العبرية إلا كلمة "شالوم" ، أنه "تلميذ بلید کسوی" ^(١٦)، إنه كذلك بالفعل لأن من لم يعرف في الحياة إلا "السلام" كان فريسة سهلة لأعدائه، ومن يراهن على السلام لوحده مع عدو لا يؤمن إلا بمنطق العنف ^(١٧) والقوة لا يكون إلا بليداً متصل بالبلاد وإن حصل على "الليسانس في الحقوق" كما جاء على لسان "عبد الله". إن من وظائف راشيل في مسار الأحداث أن تسهم في مسار التطبيع مع "الضحية" ، تطبعاً يستهدف تحقيق أمرين :

الأول : أن تحطم الشخصية المادية والأخلاقية للعربي "عبد الله" بإدخاله حالة السيولة، وهو الخطر الذي عبر عنه باكثير من خلال تصوير الخطر المحقق بـ "السمعة" أي الشخصية المعنوية أو الأخلاقية والأملاك ^(١٨) أو الشخصية المادية.

الثاني: أن تتحول الدول عن مدلولاتها الحقيقة، فيصير العدو صديقاً، ويتحول الشر إلى خير مطلق، ويستحيل المستعمر إلى صاحب حق، وهي آية ذات خطر كبير ^(١٩)، ولعل أكبر خطر يهدد الوجود العربي والإسلامي هو خطر التطبيع الذي ينطلق لنفس مقوم الوجود من أساسه، وتظل اللغة غير بريئة في هذا الاتصال النك، ولنستمع إلى عبد الله يبيّن كيف سرى في جسمه الداء إلى أن أقعده:

"راشيل:....إنك تبغض العبرية كما يبغضها قومك.
عبد الله: أتریدين الحق يا حبيبتي راشيل؟ كنت فيما مضى أكره العبرية وأعدها مزاحمة للغتي القومية في فلسطين، ولكنني لما أحبت راشيل أحبت لغتها معها" ^(٢٠).

إن هذا المقطع يبيّن مسار التحول والذوبان الذي انتهى بالعربي من دائرة التحيز "الواعي" كنت فيما مضى إلى "مهماوي التطبيع" و"التماهي" الذي يصل حد ال�يام بـ "العدو" ، إنه خطاب ينوب في التعبير عن بعض النخب العربية التي

ثالثاً: الشخصية اليهودية ومنطق السمات المميزة

كتب الدكتور المسيري كتاباً نشر سنة ١٩٩٧ تحت عنوان "من هو اليهودي؟"^(٢٦) وقد عرض فيه قضية غاية في الحساسية تخص هوية اليهودي في العالم، وهي قضية نسائل الطروحات الصهيونية التي تقدم نفسها باعتبارها قومية اليهود ، وأن اليهود شعب واحد موحد^(٢٧)، وقد بين فيه المسيري _ رحمة الله عليه _ كيف أن اليهود واقع إثنى وعرقي متعدد، وأن الطروحات الصهيونية هي طروحات اخترالية كاذبة .

كان المسيري _ رحمة الله _ يتحدث عما يمكن تسميته بالسمات المميزة إذا شئنا الدقة التي تميز الجماعات اليهودية، هذه السمات التي قد يقوم بينها بعض التناقض والتدافع في الشخصية اليهودية، وهو سر تميزها، ومن هذه السمات التي نرى حضورها من خلال أدب باكثير رحمة الله، والتي استمدتها من دون شك من خلال معرفته المباشرة بواقع حال هذه الشخصية وأيضاً، وهذا أمر غاية في الأهمية، من خلال اطلاعه الدقيق على تصوير القرآن الكريم لهم^(٢٨):

أ- السمة الأولى: العنصرية

من آيات العنصرية التي يمكن أن نعثر عليها _ وهي كثيرة_ ما عبرت عنه الشخصية العربية من معاناة أثناء الاشتغال المشترك في دوائر الوظيفة مع اليهود، يقول ميخائيل المسيحي العربي في مسرحية "شيلوك الجديد" مشتكياً ومتألماً: "آه يا كاظم لو كنت موظفاً مثلّي لشهدت بعيوني رأسك كيف يتغطرس الموظفون اليهود على الموظفين العرب كأنهم أصحاب البلاد، وكأن العرب غرباء فيها، والويل للموظف العربي إذا كان رئيساً في المصلحة، ففي هذه الحال يتوقع مر عoso اليهود عليه ويركون عمله، ويذبرون الخطط لإيقاعه" في زلة تقع تبعتها عليه، فإذا قاومهم واستعمل سلطته عليهم أو شكاهم ، فلا يلبث أن ينقل من منصبه ، ويستبدل به رئيس يهودي، بدعوى الرغبة في

اسجام العمل^(٢٩)

وتمتد العنصرية اليهودية في مشهد آخر لتأتي الشهادة هذه المرة على لسان اليهودي إبراهام (اليهودي غير الصهيوني) حيث يتم التقرير بين العامل العربي والعامل اليهودي في الأجر، بل إن السياسة العنصرية تذهب أبعد لمنع العمال العرب من العمل واستبدال عمال يهود بهم^(٣٠)، وهي الفكرة التي جاء بها "جوردن" اليهودي الصهيوني المعروف صاحب فلسفة "دين العمل" التي انبثقت منها نظرية العمل العربي، حيث ينبغي أن يقوم اليهودي بكافة الأعمال، ويعني ذلك ضمناً عدم تشغيل اليد العاملة العربية^(٣١).

ولقد نجح باكثير أدبياً في رصد سمة العنصرية بما هي سمة متجلزة في الشخصية اليهودية التي تحظى سياقها بالقوة^(٣٢) من داخل المجتمع الصهيوني ذاته، إذ يعني اليهود الشرقيون (السفارديم)^(٣٣) من الإحساس بالدونية والتهميش جراء معاملة اليهود الغربيين (الأشكيناز)، نقرأ ذلك من خلال الحوار الذي دار بين كوهنسون وكوهينيم في مسرحية شعب الله المختار:

كوهنسون: لا نتس يا موسیو كوهينوف أتنا دولة يهودية فيجب علينا أن نحترم السبت.

كوهينوف: رجعية سخيفة لا تليق بدولتنا المتحضرة.

كوهنسون: هذا لو كان يهود إسرائيل كلهم ملحدين مثلّك، لكن فيهم المؤمنين المحافظين.

كوهينوف: تعني أولئك الرجعيين المنحطين من يهود العراق ويهود المغرب ويهود اليمن، هؤلاء يجب أن يكونوا تبعاً لنا، لأن تكون نحن نتبع لهم كوهان: أنا على رأي موسیو كوهينوف _ إنه من أسفف السخف أن يفرض علينا نحن يهود أوروبا وأمريكا بأن ننحط إلى مستوى يهود اليمن"^(٣٤).

من خلال هذا الحوار استطاع باكثير _ رحمة الله _ ببراعة أن ينقل لنا حدة الانقسام أو التناقض بين اليهود الشرقيين والغربيين، هذه الحدة التي دفعت بعض الباحثين الإسرائيليّين إلى التخوف من ظهور إسرائيل شرقية وأخرى غربية

وليس ديناً، وقد كتب مرة يقول: توجد أمراض ثلاثة شريرة: الفقر والألم واليهودية.

إن إضفاء القداسة في الفكر اليهودي على الفعل الخبيث (الذي يرمز لنوع من التجاوز الأخلاقي) أو أي فعل إنساني منحط مهما تناهى في انتهاكه يوضحه على سبيل المثال ما قاله شايروك بشأن راشيل: إنك فتاة مباركة يا راشيل^(٤٠).

لقد كان باكثير رحمة الله حريضاً على تعرية الشخصية اليهودية في هذا الجانب، فأجاد في كثُف مستوى القساد والتردِي الأخلاقي الذي انتهاكه إلى الشخصية اليهودية في "شعب الله المختار" حتى وصلَ إلى حد أن الزوجة (سارة) تعانِر أعضاء الكنيست (كوهينون وكوهنوت) و코هانوف وكوهان (وتنفع ابنته راشيل) إلى أحضانهم وأحضان الميلوثير الإيطالي، والفتاة تغازل المستشر الأمريكي علناً خطيبها تاسيمون^(٤١) يرى كل هذا وبقلبه وصاحب الفتن (حاتم) لا يغضبه أن يرى زوجته تتقلَّب بين الحجرات ليلاً بقدر ما يغضبه أنها تخفي عنه كم تالت من كل واحد من زبائنها، ويوافق على تقلب ابنته بين الرجال، كل هذا من أجل المال.

وفي مسرحية "التوراة الضائعة" ترجمة "برباره" وهي المسيحية التي تحولت إلى اليهودية في مستنقع القساد مع يهودي "واعظ" غير زوجه^(٤٢) على الأرض المقدسة، وتوجه زوجها أن الولد ولده، وهي على وضاعة فعلتها لا ترى أن جرمها يستوجب النار أو العقاب، فهي ستدخل الجنة لأن زوجها يعتقد ذلك، وينتهي الأمر بحالة من السبولة المتمثلة في الوقوع في الإلحاد، حيث إنكار وجود الإله بالمرة^(٤٣).

لعل ما يفسر هذا الجموح الذي رصده باكثير في الشخصية اليهودية للتجاوز الأخلاقي خصوصاً في مسألة الدعاارة والجنس ما نجد في مدونات اليهود وشروحهم التلمودية لمسألة، إذ لا يعتبر التلمود الزنا بامرأة من الأغيار (غير اليهود)، متزوجة أو غير متزوجة، محرماً، أما التحرير في العهد

مستقبلًا، ورغم أن الشرقيين هم الأكثر عدداً إلا أن الغربيين هم المسيطرة سياسياً وثقافياً، وهم، أي الغربيون، ينظرون إلى الشرقيين نظرة التعالي، فهم في نظرهم مفتقرون للعقلانية والتخطيط ويتسمون بخرافية التفكير والذاتية والعاطفة وسرعة الإحباط، بل هم أقرب إلى العرب، وقد بلغ بهم الشطط أنهم يعتقدون أن "العرب واليهود السفارديم يعملون معاً في خطوة واحدة لتدمر الحضارة الأسكندرية"^(٤٤).

بـ- السمة الثانية: تجاوز الأخلاق
من وجهة نظر وظيفية يعتبر التجاوز الأخلاقي خصوصاً مع الآخرين في الفكر اليهودي عملاً مقدسًا^(٤٥)، وصاحب مبارك، ووجهة النظر هذه إنما هي انعكاس للواحدية الكونية من جهة بما هي احتزال لسائر الأبعاد، ومن جهة أخرى لفكرة "الجوبيم" الآخرين الذين يحل فعل أي شيء بهم، إنهم يعتقدون أنهم هم وحدهم البشر، أما غيرهم فحيوانات مسخرة لخدمتهم، هكذا يقول كتابهم التلمود^(٤٦).

يعبر عن هذه السادية كوهين في "التوراة الضائعة" إذ هو يدعم إسرائيل بأمواله من أجل أن يمتع عينيه برؤية أعدائه وهو مهزومون مسحوقون وعلى رءوسهم أحذية الجنود الإسرائيلي، يريد أن يشفى عليه بالانتقام لكل ما أصاب شعب الله المختار في تاريخه الطويل من اضطهاد وإهانات^(٤٧)، إحساس متجرد بالتشفي لا يترك مجالاً للأخلاق أو للترابط والتعاطف الإنسانيين، حتى إن منظر الوجه المشوهة بالنابالم، ومنظر البيوت العربية المخرابة والجثث، وصورة لهفة الفارين من بؤس الحرب وألامها تصير منظراً من وجهة نظره رائعاً، لأنه أشبه برواية مسلية هزلية تبهج النفس وتريح الأعصاب^{(٤٨) !!!}

إن هذه الزاوية من نظر الشخصية اليهودية للعالم وللعرب تحديداً تقف فوق أي مستوى لمفهوم التجاوز الأخلاقي المتعارف عليه، وتذكرنا بما قاله أحد الشعراء اليهود وهو هاينريش هايني الألماني عن اليهودية، فهي عنده مصيبة

يرتكب إثماً كبراً، كملَ من عندك ألسنت تحفظ التلמוד؟
جيم: (مكملًا) لأنه بعمله هذا يقوى الكفار ويُعرِّب عن حبه للوثنيين، ومن
أحبهم فقد أبغض الله^(٤٦).

يبدو من تحليل هذا المقطع أن أفضع أنواع الاستغلال وأشنعه ذلك الذي يعتقد فيه صاحبه أنه يتبع بهذا السلوك إلى ربه، ويقترب به إلى مولاه، إذ هو يحرص أن يكون استغلاله للآخرين (الأمينين) على نحو متقدم وفي إبداع وإتقان حتى يرتفق في مدارج القرب من مولاه وربه، ويُكسب عمله وسلوكه المادي الصرف غالباً مقدساً، وهذا الطابع أو السمة في الشخصية اليهودية ذكرها القرآن حين عبر عن تبريرهم بقوله "ليس علينا في الأميين سبيل"، وقد كان بأكثري رحمة الله متمثلاً هذه الآية تحديداً في توصيفه لمنطق الشخصية اليهودية المستغلة، بل وأوردها على لسان صلاح الدين في حواره مع ريتشارد قلب الأسد: "يا عزيزي قلب الأسد، إن لهؤلاء اليهود عذرهم فيما فعلوه، فهم يعتقدون أن ليس عليهم في الأميين سبيل"^(٤٧).

إنه ليس اعتذاراً لهم، بقدر ما هو فضح وكشف لألاعيبهم ومحططاتهم ولنفسائهم المريضة، وقد كان بأكثري في كثير مما نقله عن الشخصية اليهودية موجهاً في تفسيره بروح القرآن الكريم ونصوصه التي رفعت الغطاء عن مكنوناتهم ودواخلهم، فصارت لمن يتأمل نصوص الوحي، التي هي بمنزلة المنظار الكاشف، واضحة في تفاصيلها المخزية والرديئة، والمعادية لكل قيمة إنسانية سامية.

وقد أفلحت شخصية "جيم" في التبيه إلى صدور الشخصية اليهودية في الاستغلال عن نصوص مقدسة مما دعاه للشك، كيف يكون دين سماوي من المفروض أن يدعو للتسامح والتعاون والرحمة نجده يدعوا في المقابل لاغتنام كل فرصة لنهب الآخرين وتضييع حقوقهم، أم كيف يجوز تصور موسى يتبع الله بالاستغلال والعنصرية: "يا مسْتَر جوزيف إني قرأت عن الأديان كلها السماوية وغير السماوية، فوجئتها كلها تدعوا إلى الإحسان والبر بالإنسان أيا كان

القديم، فِيَقْتَصِرُ عَلَى زَوْجَةِ الْغَرِيبِ، وَفِي إِحْدَى الْفَتاوَىِ، جَاءَ أَن إِنَاثَ الْأَغْيَارَ "زَوْنَاهُ"، وَجَمِيعَهَا "زَوْنَوْتُ" أَيْ عَاهِراتٍ حَتَّى لَوْ تَهُوْدَنَ^(٤٨). كما يمكن ملاحظة أن العهد القديم مليء بالأحداث الجنسية المنافية للقيم الدينية، والمعيرة عن سمة التجاوز الأخلاقي بامتياز، من ذلك (اعتداء أحد أبناء يعقوب على جارية أبيه، العلاقة بين يهودا وثamar زوجة ابنه، داود وامرأة أوريا الحيثي، إبراهيم وزوجته في مصر، إلخ...)^(٤٩).

ت - السمة الثالثة: الاستغلال

لعل ألمع مثال يحضر في أعمال الراحل بأكثري مؤشراً على الاستغلال في الشخصية اليهودية هو "شيلوك"، وقد أبدع بأكثري في رسم ملامحه وتدقيقها بما جعل منه وحشاً كاسراً لا يهمه سوى المال، ينشر وكلاءه في كل مكان ليغرقوا البسطاء والمحاجين في ديون لا تنتهي بهم إلا تحت رحمته، أو بتعيره أدق تسواته، يؤكد هذا الأمر حديث "مخائيل" في حديث الشاب "عبد الله" عن شرامة اليهود وكيدهم بكل السبل استغلالاً لضعف الفلسطيني في جره لبيع أرضه لوكالات السمسرة الصهيونية، يقول: "...نحن نجاهد اليوم يا بني لنمنع ما بقي لنا من أرض الوطن أن يتسرب إلى أيدي اليهود، إننا نقف اليوم يا بني في وجه الذهب اليهودي الذي يتدفق على بلادنا من كل الجمعيات الصهيونية في العالم ويغزو مكان الضعف فينا بأسلحته الفتاكه ووسائل إغرائه الجهنمية"^(٤٤).

إن الاستغلال في الشخصية اليهودية عند بأكثري قد يأخذ طابع القadasة من أجل إحداث حالة من الرضا لإيقاع الظلم على الآخرين بسلبهم ما يملكون أو تعريضهم للمتابعة والمصائب، كيف لا وموسى نفسه فيما يدعونه "توراة" يأمر أتباعه بسرقة حلي النساء المصريات ليلة الخروج، ألا يكون من الأتباع للموسوية نهج سبيله^(٤٥)، جاء في حوار "جيم" مع "جوزيف" في مسرحية التوراة الضائعة:

"جوزيف: قال ميمانود: إذا ردَ اليهودي إلى الأمي ماله المفقود فإنه

والطهرانية ، وهي الحسيدية، تجد المنتدين إليها أكثر الناس نطرفا في الشهوانية والمادية.

هذه الطهرانية، أي طهرانية العنصر اليهودي جعلته من أشد الكائنات انقساما في التناقض بين الظاهر والباطن، وهو نطرف يذكرنا بجماعات يهودية مثل السكوبيني والخلبيسي التي تحرم الجماع الشرعي من ناحية، ثم تقيم من ناحية أخرى احتفالات ذات طابع جنسي دافع، وقد تأثر يهود اليديشية بذلك العركات، ولعل كل ذلك أدى إلى تهيئة الجو لظهور شباتي تسفى الذي نادى بالترخيصية، وباسقاط الأوامر والتواهي، وبدأ في ممارسات جنسية كانت نفسر تقسيرا رمزا من قبل أتباعه^(٤٠).

والطهرانية ، التي سجلها أدب باكثير كسمة للشخصية اليهودية ، كما تجد مستندتها فيما ذكرنا ، هي أيضا ذات طابع مقدس إذ كما تروي التوراة، فإن نبى الله هوشع أمره الله أن يتصل بعاهرة وينجب منها أبناء، وقد فعل ذلك بحماس أو بنشاط كما تحكي روایتهم "انطلق فاتخذ لك امرأة زنى وأولاد زنى ، فإن الأرض ترنى عن رب"^(٤١)، وبذلك تعبّر هذه السمة عن حالة السيولة الشاملة التي بلغتها الشخصية اليهودية في التاريخ والثقافة .

ج- السمة الخامسة: اصطدام المظلومة (الإحساس بالاضطهاد)
الإحساس بالاضطهاد مكون رئيس في الشخصية اليهودية^(٤٢)، وعليه يعيش اليهود في الدعاية الصهيونية العالمية، يقول كوهين وهو أفضل من ينقن النواح والتعبير عن هذه السمة ضمن شخصياته باكثير: "أتعذ قيام دولتنا واعتراف الأمم بكياننا القومي بعد ما قاسيته من الاضطهاد الطويل لعنة علينا" "مرحبا بلعنة تتصفنا وتترفع عن ظهورنا سياط الاضطهاد"^(٤٣)

فاستمرار الوهم بالاضطهاد يخلق في الكائن اليهودي حالة من عقدة الاضطهاد، إذ يتحول العالم كله إلى شر يحيق باليهود واليهودية، كما يتحول معه أي سلوك تواصلي في التأويل اليهودي إلى محاولة للمحو من الوجود،

جنسه ولونه ومعتقداته، إلا هذا الدين اليهودي الذي أنتم عليه، فإنه لا يأمر بالإحسان إلا لليهود وحدهم، ولا ينهى عن ارتكاب الإثم إلا في حق اليهود وحدهم، أما غيرهم من بنى البشر فمباح لليهودي أن يسرفهم أو يظلمهم أو يعتدي عليهم، بل واجب عليه أن يفعل ذلك إذا أمن الوقوع تحت طائلة القانون"^(٤٤).

ث- السمة الرابعة: الطهرانية
في الوقت الذي تعلن فيه "الشخصية اليهودية" أخذها بمبدأ التخلق في الممارسة العملية، وانتهاجها سبل الاستقامة، تحرص في السر على خرق هذا الادعاء، بالارتماء في أتون الشهوة والفساد وهتك الحرمات، ولعل السياق الاجتماعي في الواقع كما نقله باكثير يرسخ هذا المعنى ، من شواهد ذلك الحوار الذي جمع أمبرتو وكوهان:

أمبرتو: هل لك يا سيدني أن تخبرني عن هذه العادة الغربية عندكم؟
كوهان: أي عادة يا سينور؟
أمبرتو: لقد طفتنا أنا وزوجتي يوم أمس بجميع فنادق المدينة، فلم نجد فندقا واحدا يرضي أن يعطينا حجرة بسريرين أو سرير مزدوج.
كوهان: هذا من نوع هنا في تل أبيب.
أمبرتو: لكنها زوجتي.

كوهان: ولو، للرجال جناح وللنساء جناح.
أمبرتو: هذا أمر لا نظير له في أي بلد آخر، فما السر في ذلك؟
كوهان: السر واضح يا سينور، رعاية للأخلاق ومحافظة على الشرف"
كل هذا التبرير الطهراني ليكشف "أمبرتو" له في الأخير أن "راشيل" عوضت زوجته ونابت عنها تحقيقا لشعار "أخلاقية بدون أخلاق". وحينها يتحول الفندق الماخور إلى "شرف فندق في العالم"^(٤٥).
إن طبيعة "الشخصية اليهودية" طبيعة أبيقورية مغرفة في الأخذ بمبدأ اللذة، حتى إن أكثر الجماعات اليهودية الصوفية ادعاء للأخلاق والسمو

مضطهد مطارد بئس صاحب حق ضائع، كما يبين من جهة أخرى أن النازية في حربها على اليهود كانت واعية بخطرهم الداهم على الحضارة، وهي مسألة لم يكن هتلر ليخفوها في كتابه الشهير كفاحي، إذ اعتبرهم سوس الحضارة الإنسانية وسبب خرابها.

ح- السمة السادسة: النبوة

استطاع باكثير رحمة الله تجسيد هذه السمة في الشخصية اليهودية من خلال عدة ملامح أهمها قضية "شعب الله المختار" التي كتب مسرحيه بعنوانها، وفي الوقت ذاته وببراعة فنية تمكّن من تفنيده هذه النبوة بفنية من طريق نقل حالة الصراع التي تغلي بها إسرائيل خصوصاً بين اليهود الشرقيين والغربيين، والتي عكست تشظي هذه النبوة ذاتياً، إذ يذكر اليهود الشرقيون أن يكون خصوصهم الغربيون من يشملهم وصف "شعب الله المختار"، فهم في النهاية جماعة "مالايك صعاليك" من نسل مختلط لا يصلح أن يرقوا إلى مرتبة الاصطفاء.

عزاً: أنت سبب الانحطاط يا إسكنازيم، ما دمتم في إسرائيل فلن يتم لها مجدها الموعود أبداً.

كوهين: أستطيع يا عزرا أن أقول لنا لماذا؟
عزرا: لأنكم لستم من شعب الله المختار، أنت دخلاء من نطف السلف والصفالة واللاتين والجرمان ومن شئتم من الأمم!!
كوهينسون: ومن هم شعب الله المختار إذن؟

كوهان: أنت

عزرا(محانا) نعم نحن

الأربعة: (ساخرين) أنتم ؟؟^(٥٦)

يرد على لسان كوهين في مسرحية شيلوك تأكيد على أن حق "اليهودي" وحق "إسرائيل" في الوجود والسيادة حق مقدس جاءت به النبوءات القديمة: إن

وهكذا تصير قاعدة التشكك في النوايا واتهام الآخرين بالظلم وإلقاء اللوم عليهم من الأسلحة النفسية القريبة لكل شخصية يهودية، كما يتحول التبرير باعتباره آلية نفسية مؤقتة إلى سلوك يومي دائم، سلوك للأخطاء ولتاريخ الحقد وتدشين مجتمع الكراهية.

عقدة الاضطهاد لها منطقها التفسيري الذي تواجه بها خصومها المزعومين، وهي تعتبر أن "بقاء اليهود على هذا الوضع المحزن لمسألة إنسانية، ومن العار على بني الإنسان ولا سيما في هذا العصر الذي استيقظ فيه الضمير العالمي أن تستمر هذه المأساة، إن اليهود جنس من البشر لا يختلف عنهم صورة، ولا يقل عنهم ذكاء وموهاب، ولا يختلف عنهم في ركب الثقافة والحضارة، ولا ينقص عنهم شعوراً بحقه في الحياة، ولكن اليهودي ما برح منذ القدم ينظر إليه بعين الريبة والخذر في كل بلد يحل به كأنه من طينة أخرى غير طينة البشر، فإذا تمكن بالرغم من ذلك من النجاح في معترك الحياة بجده وذاته عد ذلك ذنباً عليه فكرهوه على الأقل إن لم يضطهدهو"^(٥٤)

وفي مسرحية "التوراة الضائعة" تستمع للحوار الخيالي الذي دار بين زعيم النازية هتلر وزعيم الصهيونية هرتزل فيما يشبه لقاء في يوم من أيام القيامة على طريقة أبي العلاء في رسالة الغفران أو دانتي في الكوميديا الإلهية حيث جمعت الزبانية بين العدوين اللذين جمعاً يكشف عن وعي هتلر بما تظهره "الشخصية اليهودية" من الاستضعاف المزيف من أجل الاستقواء فيما بعد على غيرها.

"هرتلز: اضربني لكي يرثوا الحال فيعيدونا كما كنا.

هتلر: هي هذه طريقتكم تفتكون الاضطهاد لاستدرار العطف"^(٥٥).

إن هذا الحوار الذي تخيله باكثير ، وجمع فيه بين شخصيتين لم يجمعهما التاريخ حقيقة، له ما يبرره فنياً وفلسفياً، إذ إن باكثير أراد من خلاله نقل رسالة للعالم بأن الأيديولوجية الصهيونية قامت على مبررات غير واقعية ومتغلبة، وقد نجحت في كسب التعاطف بما صنعته من سيناريوهات صورت اليهودي بأنه

حق اليهود في فلسطين ثابت بالكتاب المقدس، وقد قامت فيها مملكة إسرائيل العظيمة، وظهر فيها أنبياء بني إسرائيل، ونحن ورثة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والرسل^(٦٧).

وهذا الذي ذكره باكثير عن نبوءات "اليهودي" مستمد من غير شك من خلال اطلاعه على نصوص التوراة والتلمود التي تغرس الخرافات في أذهان وعقول اليهود عبر التاريخ، جاء في سفر التثنية على سبيل المثال: "لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وإياك أصطفى الرب أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض"^(٦٨).

ومثله أيضاً ما جاء في سفر الأخبار: "أنا الرب إلهكم الذي فرزكم من بين الأمم، وقد ميزتكم لتكونوا لي"^(٦٩).

وإسرائيل كما هو معروف — فيما يعتبرونه نبوءات — لا تقف عند حدود بلاد فلسطين، إن إسرائيل لن تقف عند حدودها الحالية، ولن تهدأ حتى تهيمن على سائر أرض الميعاد من النيل إلى الفرات^(٦٠)، وهذه النبوءة تسكن العقل الباطن للشخصية اليهودية وتحرك سواكه في لحظات الانفعال سواء بالفرح أو الغضب.

"كوهان: لنرقص جميرا، لنرقص إسرائيل، لنرقص أرض الميعاد(ينطلق إلى أقصى اليسار) من الفرات(ثم ينطلق إلى أقصى اليمين) إلى النيل"^(٦١).
إن الحلم بـ"أرض الميعاد" حلم بتهويد الجغرافيا والتاريخ واللسان والإنسان، حتى تصير العبرية في المستقبل "هي اللغة الرسمية في جميع أرض الميعاد"^(٦٢).

خ- السمة السابعة: الإحساس بالاغتراب

يغلب الإحساس بالاغتراب على الشخصية اليهودية في أدب باكثير وفي الواقع، ومرد ذلك إلى ازدواجية الولاء الذي يتanax اليهودي المهاجر، أيكون ولاؤه لبلده الأصلي الذي ترعرع فيه ونشأ أم لبلده المضيف "إسرائيل"، وقد

تكون نهاية هذا الشعور درامية (الانتحار) كما صور باكثير في مسرحية شعب الله المختار، حيث انتحر مردحه بعد عودته إلى بلده رومانيا، وغطت الحادثة بتقلها أيضاً على سيمون صديقه حال زيارته لبلده مصر لتجره للتفكير في نفس المصير نتيجة التمزق النفسي الذي يعانيه المهاجر اليهودي^(٦٣).

تمزق تعكسه اللغة نفسها التي يتكلّمها عدد من اليهود داخل إسرائيل، إذ كثير من اليهود أنفسهم لا يُعرفون العربية ، وإنما يتكلّمون بلغات بلدانهم الأصلية^(٦٤).

وإذا تأملنا الشخصيات اليهودية التي رسمها باكثير نجد أنها جميعها تحس بازدواجية الانتماء، وقد يتحول في بعض الأحيان هذا الشعور إلى نوع من التعالي (شعب الله المختار) والتظاهر بمركب العضمة تقادياً للوقوع في براثن الانتحار والضياع الهوّي (من الهوية):

كوهنون: وأنا أمريكي مثلك
أندرسون: (في سخرية خفية) أقصد أني أمريكي فقط أما أنت فأمريكي وإسرائيلي في وقت واحد

كوهان: وأي عيب في ذلك؟ فأنا أيضاً إسرائيلي وفرنسي
كوهين: وأنا إسرائيلي وإنجليزي
كوهينوف: وأنا إسرائيلي وروسي
كوهينسون: هل ترى في ذلك عيباً يا مسّتر أندرسون؟
أندرسون: أنا لا أعيّب ولا أمدح ، ولكن هذا وضع شاذ لا مثيل له في

شعوب العالم

كوهان: وهل لنا نحن مثيل في شعوب العالم؟ نحن شعب الله المختار^(٦٥).
هكذا يسيطر الاغتراب باعتباره شعوراً شاداً (وضع شاذ لا مثيل له في العالم) كما ورد في نص الحوار ، والشخصية اليهودية تحاول تأويله لتعطي من الضعف والشتات والتلاشي معنى القوة والتميز والانتخاب الطبيعي أو الإلهي (شعب الله المختار).

أسرتها بعد أن جمعت أموالا طائلة (بعد أن صار مليونيرا)، عادت بجنون الماشيحيانية تحمل في ضميرها حقدا لا نهاية له على الآخرين (النازيين) والعرب، وكل ما سوى اليهود، وهذه الشخصية تتطلع لإسرائيل الكبرى التي تجمع يهود العالم بعد أن ينحرموا إليها من كل حد وصوب، ينزحون لقتلوا كل من يجدون أمامهم، مصداقا لنبوءة ميمانود في التلمود: "يجب قتل الأجنبي لأنه من المحتمل أن يكون من نفس الشعوب السبعة التي كانت في أرض كنعان المطلوب من اليهود أن يقتلوها عن آخرها".^(٦٧)

وماشيحيانية كوهين ترتبط بإسرائيل وببلاد إسرائيل، الأرض التي كتبها الله لليهود قديما، وأعادها إليهم حديثا، وجعلها لهم خاصة لا يشاركون فيها أحد.^(٦٨) كوهين: تذكرني يا هذه أن أجدادنا كانوا يهودا، وقد جاءت إلى أرض اليهود، فيجب أن تعود إلى دينها القديم".^(٦٩)

فهي العودة هي حمى ماشيحيانية يتحلل فيها اليهودي المهاجر خارج إسرائيل ليجد فيها دافعا قويا للنزوح المقدس إلى أرض أعدها الله له ولأبنائه، أعدها لهم ليعودوا من جديد على مسرح الأحداث العالمية فيعودوا زمام الحضارة، ويعيدوا الأوضاع إلى ما ينبغي أن تكون عليه، أي إن وظيفتهم تصحيح وضع التاريخ المختل بأن ينذروا مشيئة الرب في أرضه باستبعاد ما سوى اليهود وتحفيتهم من دائرة الفاعلية إلى دائرة المفعولية. ولعل تصفيية الإسلام والمسيحية من جملة الأهداف "النبياء" في شريط هذه الملحة المقدسة يقول هرتزل زعيم الصهيونية مخاطبا هتلر منتشيا في "التوراة الضائعة": فأبشر فقد سقط في أيدينا مهد المسيح وقبر المسيح،... لقد اقتربنا من الهدف العظيم الذي تصبو إليه... القضاء على دين المسيح".^(٧٠)

إن الذي جمع هتلر وهرتزيل في رؤية باكثير رحمة الله من وجهة نظر النموذج الإدراكي المركب هو انتماؤهما معا (النازية والصهيونية) إلى نفس المنظومة الواحدية العنصرية، فرغم الصراع الذي كان تاريخيا بين الفكرتين، فإن البنية التركيبية لنسق كل من الصهيونية والنازية واحدة، لأن عنصر البناء

إن الاغتراب قلق في المكان والزمان، ومحاولة للانعتاق منهمما بضرب من التسامي (الترونسوندنطالي) الذي يرى في فكرة عنصرية وعرقية خلاصا من عذابات الواقع الذي يجمع أفرادا من البشر ، أول ما يقومون به هو (التنافي) نفي الصفة المميزة عن بعضهم البعض، فيقول السفارديم للأشكيناز لستم على شيء، ويقول الأشكيناز للسفارديم لستم على شيء، نفي يزيد من اغتراب الإنسان اليهودي حين تضيق به أرض ميعاده لأنها ببساطة لا يجد فيها أمنا كما وعدته النبوءة المزعومة.

رابعاً: الشخصية اليهودية والماشيحانية

في الفكر اليهودي تحيل "الماشيحيانية" على عقيدة حلولية تستحضر فكرة النبالة عن الله في تنفيذ مهمة خاصة يوكلاها الإله إليه، وهي مهمة مقسدة بدون شك، وأصل الكلمة من "الماشيح" وهي كلمة عبرية تعنى "المسيح المخلص" منها "ماشیحوت" أي "ماشيحانية" أو الاعقاد بمجيء "الماشيح" في آخر الأيام، والكلمة مشتقة من الكلمة العربية "مسح" أي "مسح" بالزيت المقدس، وكان اليهود على عادة الشعوب القيمية يمسحون رأس الملك أو الكاهن بالزيت قبل تنصيبهما علامة على المكانة الخاصة الجديدة، وعلامة على أن الروح الإلهية أصبحت تسري فيهما.

ويسمى الدكتور المسيري الرغبة في العودة إلى صهيون (أي فلسطين) عند الشخصية اليهودية بـ"الحمى الماشيحيانية"، ومعلوم أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهود العودة إلى فلسطين، وعلى اليهودي أن ينتظر بصبر وأنة إلى أن يشاء الإله ويرسل "الماشيح"، فيتحقق حينئذ أن يعود. ويرى كثير من المؤرخين أن حمى العودة ورفض الانتظار بدأت بين اليهود بحملات الفرنجة ووصلت إلى قمتها مع الحركة الصهيونية التي حققت نجاحا كبيرا لأنها قامت على النزعه الاستعمارية وتعاونت مع الغرب ووضع نفسها تحت تصرفه.^(٧١)

في مسرحية "التوراة الضائعة" يصور لنا باكثير رحمة الله شخصية يهودية ألمانية ماشيحانية (كوهين) غاية في السادية، عادت من أمريكا مع

هو تمجيد الذات الصهيونية من خلال الدين والأرض الموعودة، والنازية من خلال العرق الآري الجermanي . وكلاهما ينتهي لنفس النتيجة في علاقته بالآخر، أي النفي والإلغاء. كما أن الصهيونية والنازية تلتقيان أيضاً في نزع عنهما الاستعمارية التوسعية على حساب الآخرين.

خامساً: الشخصية اليهودية والحلولية

الحلولية عقيدة تقوم على أن مركز الكون ليس مفارقاً له، بل حالاً إما في الطبيعة أو في الإنسان، وإما حال فيها جميماً، حيث يشمل الطول الطبيعية وضمنها الإنسان، و في مسرحية "إله إسرائيل" يعكس باكثير كيف انتقلت الحلولية إلى الفكر اليهودي وإلى الشخصية اليهودية حيث ينتقل اليهود من عبادة إيليس الذي يعبدونه ويأترون بأمره لينتهوا بالحلول فيه، ففي "القسم الأول: الخروج"، يصور باكثير ما حصل من اضطهاد لليهود وخروجهم إلى سيناء، حيث يبدأ الاتصال بربهم "إيليس" (٧١)، وتبدأ السيكولوجيا اليهودية في التشكيل من خلال الأنانية والمعصية والجدل العقيم والدموية وعقيدة "الشعب المختار".

وسعى "الشخصية اليهودية" إلى الحلول والاتحاد مع "إيليس" هو سعي لتحقيق هدفين:

الأول: لإقامة مملكة الرب أو "مملكة إيليس" إله إسرائيل الحق.

الثاني: لإضفاء القدسية على السلوك العدواني والشرير، ومنه الاستعمار والاغتصاب (٧٢).

يذكر جاك مايلز وهو من الباحث والدارسين لللاهوت المسيحي واليهودي أنه "على مدى القرون الطويلة التي شكل فيها إله اليهود والمسيحيين واقع الغرب الصميمى دون أن يهزه شيء، سعى الأوربيون، رجالاً ونساء، ومن بعدهم الأميركيون، إلى صوغ أنفسهم على غرار هذا الإله، منصرفين إلى هذه المهمة بحمية وحماس، ومعتقدين أن المحاولة المتكررة سوف تمكنهم من التوصل إلى صور يتزايد اقترباها من الأصل الإلهي، فمحاكاة الله Imitatio Dei، مقوله

أساسية في الإيمان اليهودي" (٧٣).

ومما يؤكد المنحى الحولي للشخصية اليهودية ما يذهب إليه الصهاينة من أن مركز الحياة اليهودية في العالم بأسره هو إسرائيل (فلسطين). ويعبرون عن موقفهم هذا من خلال مصطلح "مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا". وهذه الرؤية لها جذور في الطبقة الحولية في العقيدة اليهودية إذ يحل الإله في الشعب والأرض ويربطهما برباط عضوي ويخلع عليهم القدسية ويضفي على إرتس إسرائيل محورية خاصة. وقد قام الصهاينة بعلمنة هذه العقيدة فنادوا بضرورة أن تصبح الدولة الصهيونية مركز الجماعات اليهودية في العالم، وأن تكون الدولة الصهيونية الملجأ الوحيد لليهود، وبأن تقوم وحدتها بالدفاع عنهم، وأن تحدث باسمهم، وقالوا إن الحروب التي يخوضها المستوطنون الصهاينة إنما تهدف إلى الدفاع عن كل يهود العالم. ويرى الصهاينة أن الدولة الصهيونية هي التي تساعد يهود العالم في الحرب ضد خطر الاندماج وفي الحفاظ على الهوية اليهودية، وأنها هي التي تضمن استمرار التراث اليهودي وتطوره، وتحسن صورة اليهود أمام الأغيار، فبدلاً من صورة اليهودي التاجر والمرابي والجبار تأكدت صورة اليهودي باعتباره المقاتل الشرس، وبذا يستعيد اليهودي احترامه لنفسه بعد أن فقده بسبب آلاف السنين من النفي (٧٤).

إن الطبيعة الحولية للشخصية اليهودية تكمن أيضاً فيما تشغله التربية اليهودية من ربط صارم بين الإنسان والأرض وبالشعب وعقيدة الشعب باعتبارها تحل على شيء واحد ومرجع واحد ، تسقط فيه جميع المسافات، فإذا كان الإله وهي نفسها الشعب والدين في نفس الآن ، فيظهر من خلال ذلك كيف تتآله الدولة ويتأله الشعب ويتأله الإنسان نفسه اليهودي، لأن حياته لا تتفق عن هذه الأيقونات المذكورة ورد في الكتاب السنوي الإسرائيلي لعام ١٩٧٤ تصور لهف التربية اليهودية في الدياسبورا يقرر أن "واجب التربية اليهودية في الدياسبورا أن تجعل الشاب يحلم بالوطن وبالصهيونية، وأن يعرف أن في إسرائيل أعظم ثورة في التاريخ الإنساني، وبهذا يربط حياته بحياة الشعب الإسرائيلي والدولة" (٧٥).

بعد هذه الجولة السريعة في أدب الراحل باكثير من خلال المنهج الإدراكي المركب الذي سعينا بواسطته إلى تحقيق قدر أكبر من التفسيرية لطبيعة "الشخصية اليهودية"، نرجو أن تكون قد وفينا في الجمع بين عمالقين يُشرّفان تفافتنا العربية والإسلامية بما قمناه من رؤية إسلامية في الإبداع والنقد لا شك أنها تحمل إضافات كبيرة لصرح الأدب والثقافة الإسلامية من زاوية التحيز الإيجابي لقضاياها ولهموم أمتنا. ويمكن إجمال نتائج هذا البحث في المضامين التالية:

- التأكيد على أن الشخصية اليهودية عند باكثير تنتمي نسقياً إلى مفهوم "الجماعة الوظيفية" باعتباره مفهوماً تحليلياً تداولياً ضمن النموذج الإدراكي المركب.

- الاستدلال على أن الشخصية اليهودية في أدب باكثير أحادية البعد خاضعة للحتميات المادية والغريزية الاختزالية.

- بيان أن الشخصية اليهودية عند باكثير هي عبارة عن مجموعة من السمات المميزة التي قد لا تخلو من تناقض: العنصرية، الاستغلال، النبوة، الخ...

- بيان أن الشخصية اليهودية في أدب باكثير شخصية حلوية وماشيانية. ومن جملة ما نوصي به في النهاية:

- تخصيص مزيد من الدراسات الأكاديمية لإبداع الراحل على أحمد باكثير، وتشجيع الباحثين الشباب في المؤسسات الجامعية لتهئي أطروحتات عن أعماله.

- إعادة طبع الأعمال الكاملة للراحل على أحمد باكثير في مجاميع في نسخ اقتصادية بهدف تشجيع انتشارها على أوسع نطاق بين الدارسين.

- ترجمة أعمال باكثير رحمة الله أو ما لم يترجم منها إلى اللغات الحية والتتشجيع على ذلك بجوائز ترصد لهذا الغرض.

- تنظيم حلقات دراسية وندوات علمية دولية بتنسيق مع شعوب الأداب للتعرّيف بآدابه وتسليط الأضواء على الجوانب القيمية والفنية والأدبية والفكيرية في أعمال باكثير.

- اغتنام مناسبات الاحتفال بيوم الأرض وانطلاق الانتفاضة وغيرها للاحتفال بباكثير وأدبه باعتباره أديب القضية بامتياز.

- الهوامش**
- (١) يراجع كتابنا: الأسس الاستدللوجية والتداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٧.
 - (٢) يراجع: المسيري: دراسات معرفية في الحادة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦، ص٣٨٥.
 - (٣) يراجع: عصام بهي: الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٦.
 - (٤) يشير باكثير رحمة الله أن من مهام المدعي العربي أن يتم بالمرة المصيرية التي تخوضها أمته اليوم اهتماماً يقتضي إلى الوعي الصادق العميق الذي يدفعه للإسمام بالعمل في نصرة قومه. يراجع: باكثير: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، ضمن مجلة الآداب، ١٩٩٩، ج٥، ص١٠.
 - (٥) باكثير: فن المسرحية من خلال تجارب الشخصية مكتبة مصر، ٧٤.
 - (٦) يراجع: المسيري: الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، القاهرة دار الشروق، ٢٠٠٢.
 - (٧) المسيري: دفاع عن الإنسان، دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٦، ص١١.
 - (٨) باكثير: التوراة الصناعية، ٩٧.
 - (٩) باكثير: شيلوك الجديد، دار مصر للطباعة، ١٠.
 - (١٠) باكثير: شيلوك الجديد، ١٣.
 - (١١) المسيري: دفاع عن الإنسان، ٢٢.
 - (١٢) باكثير: شيلوك، ٤٧.
 - (١٣) للزبير يعقوب: ملکين يعقوب: اليهودية العلمانية، ترجمة وتعليق أحمد كامل راوي، مراجعة عبد الوهاب وهب الله، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٣.
 - (١٤) المسيري: دفاع عن الإنسان، ١٤.
 - (١٥) باكثير: شيلوك الجديد، ١٩.
 - (١٦) باكثير: شيلوك الجديد، ٢٠.
 - (١٧) عن العنف والعدوان في الشخصية اليهودية يراجع: الشامي رشاد عبد الله: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح الدعوانية، القاهرة دار الزهراء، ١٩٩١.
 - (١٨) باكثير: شيلوك الجديد، ٢٨.
 - (١٩) عن آيات التطبيع اللغوية في الخطاب الصهيوني المعاصر يراجع كتابنا: المخفي والمعلن في الخطاب الأمريكي، منشورات الزمن الدار البيضاء، ٢٠٠٧.
 - (٢٠) باكثير: شيلوك الجديد، ٢٠.
 - (٢١) باكثير: شيلوك الجديد، ٢٢.
 - (٢٢) باكثير: شيلوك الجديد، ٥١.
 - (٢٣) غير بالذكر أن إسرائيل مستعدة لتحمل الأبناء غير الشرعيين في هذه المعركة كما ورد في التوراة الصناعية لباكثير، ٤٩.
 - (٢٤) باكثير: شعب الله المختار، ٣٩.
 - (٢٥) المسيري: دفاع عن الإنسان، ٢٤، المثال الآخر الذي يحضرني جامعاً لهذه الخواص هو شخصية عزرا في شعب الله المختار الذي كان يعمل في جمع القانونات في اليمن ومنها راكم ثروة كبيرة وهاجر إلى إسرائيل للاستثمار وأيضاً مثل كوهين في التوراة الصناعية حيث عمل حملاً بعد فراره من المانيا إلى الولايات المتحدة قبل أن يتحول إلى مليونير وجدير بالذكر أن المتنمرين عادة للجماعات الوظيفية يقومون بأعمال وضيعة عادة.
 - (٢٦) المسيري: من هو اليهودي؟ دار الشروق القاهرة، ١٩٩٧.
 - (٢٧) يراجع: صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام، دار الجيل بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ج٢، ص١٦٥.

- (٢٨) من ذلك ما نجده من إيراده لبعض الآيات التي تحدث فيها القرآن عن بنى إسرائيل أو اليهود في أعماله والتي تؤكد تداخل البعدين الواقعي الخارجي والقرآن النصي في تصوير باكثير لهذه الشخصية وإدراكه لأبعادها السلوكية والقيمية، فرؤيته للشخصية اليهودية رؤية فنية إسلامية قرانية (شيلوك الجديد: ٣ التوراة الضائعة، ١٣ مأساة أوديب: ٣)

(٢٩) باكثير: شيلوك الجديد، ٣٨

(٣٠) باكثير: شيلوك الجديد، ٦٩

(٣١) عطاري توفيق عايل، التربية اليهودية في فلسطين المحتلة والدياسpora، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٠ ، ٤٩-٥٠

(٣٢) يراجع: قيمة كمال، الصهيونية والنصل العنصري، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩٢، وسقاف أحمد: العنصرية الصهيونية في التوراة، شركة الريان، الكويت، ١٩٨٤.

(٣٣) للتفصيل في هذه القضية يراجع: جابر أحمد مصطفى: اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضاحية والجلاد، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٤ .

(٣٤) باكثير: شعب الله المختار، دار مصر للطباعة، ١٨-١٧ .

(٣٥) Cohen, Louise, Israel is Committing Suicide, TelAviv, ١٩٧٤, P٢٢

(٣٦) باكثير: التوراة الضائعة، ٧٢.

(٣٧) باكثير: التوراة الضائعة، ١٣

(٣٨) باكثير: التوراة الضائعة، ٢١

(٣٩) باكثير: التوراة الضائعة، ٢٢، ٤٠

(٤٠) باكثير: شيلوك الجديد، ٤٦

(٤١) باكثير: التوراة الضائعة، ٥٨-٥٦ .

(٤٢) المسيري: اللغة والمجاز: بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢، ٦٢، ٢٠٠٢

(٤٣) يراجع للمزيد: جوناثان كريتش: حكايات محمرة في التوراة، ترجمة تذير جزماتي، دار نينوى، ط١، ٢٠٠٥

(٤٤) باكثير: شيلوك الجديد، ٣٣

(٤٥) باكثير: التوراة الضائعة، ٨١

(٤٦) باكثير: التوراة الضائعة، ٧٩

(٤٧) باكثير: التوراة الضائعة، ١٣

(٤٨) باكثير: التوراة الضائعة، ٨٠

(٤٩) باكثير: شعب الله المختار، ٤٩

(٥٠) المسيري: اللغة والمجاز، ٧١-٧٠

(٥١) نبوءة هوش: ١ : ٢

(٥٢) يراجع للمزيد: عطا زبيدة محمد: اليهود في العالم العربي: قراءة في خرافة الاضطهاد، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية القاهرة، ٢٠٠٤

(٥٣) باكثير شيلوك الجديد، ٦٨

(٥٤) باكثير: شيلوك الجديد، ١٧٠

(٥٥) باكثير: التوراة الضائعة، مكتبة مصر، ١٦

(٥٦) باكثير: شعب الله المختار، ١٩

(٥٧) باكثير: شيلوك الجديد، ١٦٧

(٥٨) التوراة: سفر ثانية الاشتراك، ٦:٧

(٥٩) سفر الأخبار: ٢٠ : ٢٤

(٦٠) باكثير: شعب الله المختار، ١٧ - ١٦

(٦١) باكثير: شعب الله المختار، ٣١

(٦٢) باكثير: شعب الله المختار، ٣٥

(٦٣) باكثير: شعب الله المختار، ٢٧

(٦٤) باكثير: شعب الله المختار، ٣٤

(٦٥) باكثير: شعب الله المختار، ٦٢

(٦٦) يراجع: المسيري: الإنسان والحضارة والتماذج المركبة: دراسات نظرية وتطبيقية، دار الهلال، ٢٠٠٢ ، ١٨٥

(٦٧) باكثير: التوراة الضائعة، ٢٧

(٦٨) باكثير: التوراة الضائعة،

(٦٩) باكثير: التوراة الضائعة، ٤٥

(٧٠) باكثير: التوراة الضائعة، ١١٠

(٧١) عن تماهي الله بالشيطان في الفكر اليهودي، يراجع: جاك ميلز: سيرة الله، ترجمة ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٩٨، ٣٢٩

(٧٢) معلوم أن عبادة الشيطان التي نشطت في العالم المعاصر عقيدة يهودية وضعها اليهودي الكاهن أنطون لأبي سنة ١٩٦١، وجميع طقوسها تقوم على التجاوز الأخلاقي وانتهاء الحرمات بكل السبل من التعري وممارسة الجنس الجماعي وتعاطي المخدرات وما إليها...

(٧٣) جاك ميلز: سيرة الله، ١٧،

(٧٤) المسيري: مركبة إسرائيل في حياة الدياسپورا وغزو الجماعات اليهودية وتصفيتها، ضمن جريدة الحياة الإماراتية، ٢٠٠٨/٤/٥ بتاريخ

(٧٥) The Israeli Year book, Tel Aviv, ١٩٧٤, Israeli Yearbook Publicqtion Ltd, ٦٦